كتب

يقوم تاريخ البشرية - كما نقرؤه - على فرضية تعتقد بسوء طوية الإنسان. في كتابه الأخير، يقترح الباحث الهولندي إعادة كتابة التاريخ من منطلق الفرضية النقيضة؛ الإنسان طيّب في أعماقه، وهو بذلك يقدّم نقداً للمعرفة ويدعو إلى إعادة فحصها بشكل جذريّ

روتغر بريغمان باحث يسحر العالم بتفاؤله

ماذا لو كتب روسو تاريخ البشرية؟

شوقي بن حسن

«يعرض هذا الكتاب فكرة راديكالية. فكرة تؤرّق كل الأقوياء منذ قرون...». هذه إحدى العتبات النصّية الأولى التي يلتقي بها القارئ وهو يمسك بكتاب «البشرية: تاريخ متفائل» للباحث الهولندي روتغر بريغمان (1988). العمل صدر بلغته الأم في 2019 وصدرت هذا العام طبعته الإنكليزية ثم الفرنسية (منذ شهر) لتحقّق لمؤلّفها المزيد من الانتشار بعد نجاح كتاب سابق له بعنوان «يوتوبيات واقعية» (2017).

قد تبدو الجملة المشار إليها من كتاب بريغمان جزءاً من لعبة دعائية تشوّق القارئ وتدفعه لاقتناء كتاب، غير أنها بشكل ما كانت ضرورية لبناء مفارقة والتأكيد عليها: تغييب الفكرة التي يتحدّث عنها المؤلف مقابل حضورها في الحياة اليومية وإمكانية التثبّت منها بشكل بسيط. وبعد تشويق عدد من الأسطر، يقول الكاتب الهولندي: «الفكرة التي أتحدّث عنها؟ إن معظم البشر طيّبون».

قد يصاب بعض القرّاء هنا بخيبة، فلا جديد في ما قاله بريغمان الذي سرعان ما يؤكّد أن السؤال قديم بالفعل غير أن العمل دعوة للتفكير فيه بشكل جديد: ماذا لو وضعنا هذه الفكرة البسيطة وأعدنا كتابة التاريخ، بعد أن حوربت بشكل منتظم، حتى باتت مهجورة متروكة مقصيّة من الخطاب المعرفي. يرى بريغمان أننا لو أعدنا استعمالها، واعتقدنا فيها، فسنحصل على مادة تاريخية غير تلك التي نتداولها، وهكذا نفهم ضمنياً بأن التاريخ البشري الذي نقرؤه ونرثه جيلاً بعد جيل قد قام على الفرضية النقيضة التي ترى «الإنسان ذئباً لأخيه الإنسان» (مقولة هوبز).

يوحي عنوان الكتاب أن بريغمان ينتصر إلى القول بأن الإنسان طيّب في أصله (مقولة روسو)، ولكنه لا يقول ذلك طوال عمله، حتى إننا نقرأ مقطعاً بعنوان «ماذا لو كان روسو على حقّ» كما نجد ضمن النص هذه العبارة «يمكن أن يكون هوبز على حق بالفعل». ما يؤمن به بريغمان هو أن الإنسان مزدوج في عمقه، طيّب وشرّير في آن، لكن الإشكالية تتمثّل في كون التاريخ والمعرفة يميلان إلى فرضية دون أخرى بشكل جائر. فإذا كان الإنسان مزدوجاً فعلى المعرفة أن تكون كذلك، حيث لا معنى أن تسلّم العلوم الانسانية بسوء طويّة الإنسان، وكأنها بذلك تحاكي ما يُعرف بقصة الدب في الغابة، فـ«العاقل» عليه أن يكون مسلّحاً لمجرّد وجود ظن بوجود خطر. هذه الإشارة تعطي عمل بريغمان بُعداً ابستميولوجيا، فالمعرفة العلمية تنقصها اليوم قيم المرونة والدقة والعناية بالتفاصيل، مفضّلة راحة التعميمات الكبرى.

بشكل صريح، يؤكّد بريغمان أن هدفه من الكتاب ليس الدفاع على نظرية ضد أخرى، فهذا الجدل من كلاسيكيّ الأدبيات الفكرية، وكثيراً ما يُختزل في السجال بين روسو وهوبز. يُظهر الباحث الهولندي أن هذا السجال حاضر أيضاً في العلوم الحديثة مثل العلوم العصبية ودراسات الذكاء وعلم النفس التطبيقي. يضع بريغمان هذين الشكلين من المعرفة تحت مجهر المقارنات فيجد أن العلوم الإنسانية (ذات النزعة التنظيرية) كالتاريخ وعلم الاجتماع والعلوم السياسية قد بنت معظم خطابها على أطروحة هوبز، وفي المقابل يكشف بأن علوم الإنسان (الطبيعية) تؤدّي بها التجارب في الغالب إلى مقولات قريبة من روسو.

هكذا يُحسب للعمل - في ما يُحسب له - أنه يَدرس العلاقات بين المعارف وكيف تؤدّي الفرضيات إلى نتائج نعتقد في صحّتها في حين أن تغيير معطيات بسيطة قد يؤدّي إلى نتائج مختلفة، وبالتالي إلى حقائق مختلفة. كما يُحسب للعمل محاولته الجريئة في «نزع السحر» عن عصر الأنوار منذ أن يلاحظ أن هوبز أحد آبائه وأن روسو أحد أبرز الفاعلين فيه.

يعرف بريغمان أن الوساطة بين الفيلسوفين غير ممكنة لذلك لا يضعهما في مواجهة مباشرة متخذاً مسرباً آخر حين يتصفّح تاريخ البشرية معدّداً أثر هذه الفرضية أو تلك. الملاحظة التي تقفز للعين دون عناء هي أن التاريخ كما نقرؤه هو انتصار كاسح لهوبز على روسو، لكن فحص الأمر من زاوية منطقية أو علمية يفضي بنا إلى القول بأن سبب هذا النصر ليس صلابة نظرية الفيلسوف الإنكليزي أو خللاً في أطروحة الفيلسوف الفرنسي، بل يعود إلى أن هناك اعتقاداً أعلى في فرضية الأوّل لدى المؤرخين والسياسيين، وليس عند عامة البشر، وغلبة هذا الاعتقاد هو الذي يفسّر حضورها أكثر في الواقع، حتى بات بعض الناس يُنكرون الجانب الطيّب فيهم كي يطابقوا الواقع، على الرغم من كون هذا الأخير ليس أكثر من اصطناع.

لبناء عمله، لم يقدّم بريغان عرضاً كرونولوجياً متتابعاً لتاريخ البشرية، ولم يذهب إلى تعداد محطاتها الكبرى المعروفة من حروب واكتشافات، ولا حتى اعتنى بقراءة أمهات النصوص والكتب، بل إن عمله ينتصر إلى «السرديات الصغيرة»؛ حكايات الناس وأخبار العلماء وجدالاتهم. حكايات متفرّقة يغلي بها العمل، بعضها من يوميات الحياة الاجتماعية وبعضها من التاريخ السياسي والفنّي، وقد يعرّج بنا المؤلف فجأة على فكرة ما أو يعلّق بتوسّع على حدث أو حادثة.

بهذه الطريقة، يشبه كتاب «البشرية: تاريخ متفائل» موجة من الكتابات الفكرية الحديثة التي تبدو سائلة مثل العصر الذي تنتمي إليه بحدّ توصيف عالم الاجتماع البولندي الراحل زيغمونت باومان. لكن يمكن أن نلاحظ سمة أخرى في بناء العمل، حيث يشبه الكتاب بعض روايات دوستويفسكي الكبرى حين ينتقل فيها بين أذهان الشخصيات (نسمع في الكتاب أصوات علماء وفلاسفة...) ثم لا يلبث أن يعطي رأيه ويغيّر اتجاهات السرد ضمن نسيج واحد.

من هذه التعريجات التي يقترحها العمل إضاءته الموسّعة على كتاب «الأمير» باعتبار أنه قد أصبح لاحقاً الكتاب المؤسّس للعلوم السياسية، وهو كتاب يصفه بريغمان بأنه «يجعل الإنسان متنكّراً إلى أي طيبة عميقة داخله». يشير المؤلف إلى أن كتاباً مثل «الأمير» لم يؤثّر على الأعمال الفكرية اللاحقة وحدها، بل إن فرضياته تسرّبت في الأدب والفن وفي منطق الحياة اليومية، ويلفت إلى أن الأعمال التي نعتبرها اليوم أركاناً للثقافة العامة، من مسرحيات شكسبير إلى فيلم «العرّاب» وصولاً إلى سلسلة «لعبة العروش»، قد تبنّت فرضياته ومرّرتها للناس مذوّبة في كؤوس المتعة الفنّية، ومن ثمّ فإن فرضية هوبز وجدت كل العناصر مهيّأة لإيصالها إلى مدى بعيد، فلا غرابة بعد ذلك أن يبدو الواقع وكأنه قد خذل الفرضية النقيضة.

لا يختلف ما فعله كتاب «الأمير» مع كتب تأسيسية أخرى في علم النفس والعلوم القانونية والأنثروبولوجيا، ولو عدنا لفحص الصورة الضمنية للإنسان عند هيغل أو ماركس أو نيتشه في الفلسفة، ولدى غوته وتولستوي في الأدب، ولدى غويا وبيكاسو في الفن التشكيلي، سنقف أيضاً على هذا الانحياز باتجاه هوبز.

أكثر من ذلك، حين نفحص فكرة الديمقراطية - الموضة السياسية للعصور الحديثة - سنجدها قائمة على اعتقاد بأن الإنسان غير أخلاقي وبالتالي ينبغي التضييق على نزعاته العميقة فـ«كل الناس يتحوّلون إلى طغاة إذا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً»، ورغم ذلك تفشل تلك النظريات في تنظيم مجتمعاتها. في المقابل، تنجح في ذلك مجتمعات صغيرة، مثل الفلاح المصري القديم، أو الصيادون في غابات الأمازون، فيجدون الصيغ الملائمة لتنظيم أنفسهم في مجتمع عادل وسعيد. وأين ذلك من مجتمعات تدّعي التفوّق الحضاري، ولنا أن ننظر هذه الأيام في مآلات الانتخابات الأميركية.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

الطلب على اليوتوبيا

تشير النجاحات الجماهيرية لكتاب «البشرية: تاريخ متفائل»، وقبله كتاب «يوتوبيات واقعية»، إلى رغبة عامّة تعتمل اليوم بتغيير العالم، فالأزمات الإيكولوجية والسياسية والاقتصادية والرمزية المتلاحقة باتت تفرز طلباً لا يمكن إنكاره حول هذا النوع من «الفكر المتفائل» الذي يقدّمه روتغر بريغمان وآخرون، وإن بدا الباحث الهولندي - على حداثة سنّه - في موقع متقدّم في استشعار هذا الطلب وتلبيته.

الكتاب محاولة لترميم ثقة الكائن البشري بنفسه

يقدّم دراسة في العلاقات بين الحقول المعرفية المختلفة

روتغر بريغمان في 2017 (Getty)

نظرة أولى

«حسرة الظل» كتاب جديد للشاعر والروائي والناقد الفلسطيني **محمد الأسعد** صدر عن «خطوط وظلال». يقدّم الأسعد «ثلاث قراءاتٍ تتقاطعُ أضواؤها، أو تسقط منفردةً، على تجاربَ شعرية تحمل صفتين: الشعرية النادرة والبساطة الجميلة». تقرأ الأولى تجربة الشاعر العراقي محمود البريكان، وتقرأ الثانية تجربة الشاعر الياباني ماتسو باشو، وتقرأ الثالثة تجارب ثلاثة شعراء من فلسطين وسورية ولبنان هم توفيق صايغ ومحمد الماغوط وأنسي الحاج. القراءات حسب المقدمة هي «عرض لمفاهيم هي بمثابة أدوات تساعد على تلقي الشعر بصفته شعراً قبل أن يكون خطاباً من أي نوع آخر».

«غزّة: بحثٌ في استشهادها» عنوان كتاب للأكاديمي الأميركي **نورمان فنكلستين** (1953) نُشر عام 2018، وصدرت نسخته العربية قبل أيام عن «مركز دراسات الوحدة العربية» بترجمة **أيمن حدّاد**. في ثلاثة عشر فصلاً، يسرد الكتابُ وقائع متداخلة لكفاح الشعب الفلسطيني، مُركّزاً على غزّة وما عاشته من مذابح متتالية وحصار خانق، وكيف ظلّ الإسرائيليون ينبذون عروض السلام، ويمارسون الضغوط، بمساعدة الأميركيين، في مختلف المحافل الدولية لإسكات الشهود والإفلات من المساءلة والعقاب، كما يستعرض حجج المدافعين عن «إسرائيل» ويقوم بتفنيدها.

ضمن منشورات «اتحاد الكتاب التونسيين»، صدر مؤخراً كتاب «مائة عام من الشعر العربي في تونس» للأكاديمي **عبد القادر عليمي**. يبدأ العمل بطرح إشكالية التحقيب لدراسة الشعر حيث يضيء للقارئ إشكاليات التأريخ للأدب، قبل أن يقدّم للقارئ نظرة عامة حول ما يسمّيه بـ«المنجز التحقيبي»، وضمنه لا يدرس الكتابات التي تصدّت لتأريخ الشعر بشكل مباشر، بل أيضاً كتب المختارات الشعرية باعتبارها شكلاً آخر من أشكال التاريخ الأدبي، ومن ثمّ يقدّم الباحث التونسي قراءة نقدية فيه ليفتح عمله على محاولة تقديم تصوّر لبديل تحقيبي.

«العدد والعقل» عنوان كتاب صدر مؤخراً للباحث الفرنسي **باتريس غينيفيه** عن منشورات «سار». يدرس العمل مرحلة ما بعد الثورة الفرنسية (1789) من زاوية تقارير التصويت باعتبارها مؤشراً حول موازين القوى بين نزعات اجتماعية وتوجّهات عقائدية متنوّعة. يرى المؤلف أن لحظة التصويت هي لحظة تكثّف كل المناورات والمفاوضات والاتفاقيات والخيانات، إذ تختصر في عدد قليل من الأعداد غلبة إرادة على أخرى ومن ثمّ تتحوّل إلى سلطة جديدة يخضع لها الجميع. كما يدرس غينيفيه في هذا الكتاب من كان لهم الحق في التصويت باعتباره تعبيراً عن مكانة.

صدر حديثاً عن داري «الروافد الثقافية» و«ابن النديم» كتاب «النّوازع والمصالح: حجج سياسية للرأسمالية قبل انتصارها» للاقتصادي الألماني **ألبرت هيرشمان** بترجمة **سعيد أبو زينة**. يعيد هيرشمان بناء المناخ الفكري للقرنين السابع عشر والثامن عشر لإلقاء الضوء على التحول الأيديولوجي المعقد الذي حدث، حيث لم يعد السعي وراء المصالح المادية يعتبر ضمن خطيئة الجشع. يقدم هيرشمان تفسيرا جديدا لصعود الرأسمالية يؤكد على الاستمرارية بين القديم والجديد على عكس افتراض حدوث انقطاع حاد كما يفترض التفكير الماركسي والفيبيري.

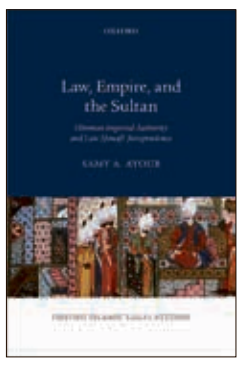

صدر حديثاً عن منشورات جامعة أوكسفورد كتاب «القانون والإمبراطورية والسلطان: السلطة الإمبراطورية العثمانية والفقه الحنفي المتأخر» للباحث الأكاديمي **سامي أيوب**، وفيه يدرس السلطة الإمبريالية العثمانية في الأعمال القانونية من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، ويلقي ضوءًا جديدًا على فقهاء من المذهب الحنفي الذين لم يدرسوا بعد وفقاً لتقديم الكتاب. يوضح الكتاب أن الفقهاء الحنفيين منحوا أوامر وفتاوى السلطان العثماني قيمة إثباتية وسلطة، الأمر الذي انعكس في قدرة السلطان على الفصل في الخلافات الفقهية.

«لعبات صنوع التياترية وحواياته.. دراسة تداولية» عنوان كتاب جديد للباحثة المصرية **نجوى عانوس** صدر مؤخراً عن «دار المعارف». ينقسم العمل إلى تمهيد وثلاثة فصول، حيث تعرّف الباحثة مصطلحات اللعبات التياترية والحواريات ودلالتها غربياً وعربياً وهي تقارن بين هذه الأشكال الحوارية أو المسرحيات القصيرة بين أصولها الأجنبية واقتباسات صنوع التياترية لتستنتج أنه لم يقدّم ضمنها مقترحات تطوير متنوّعة من حيث الشكل والمضمون. تثبت الباحثة المصرية أن صنوع استفاد كثيراً من ممارسة الصحافة الهزلية لتطوير هذه الأشكال.

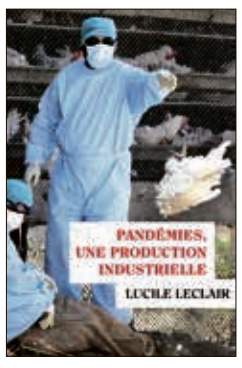

صدر حديثاً عن دار «سوي» الفرنسية كتاب «جائحات. إنتاج صناعي» للصحافية **لوسيل ليكلير**. على عكس ما يوحي به العنوان فإن المؤلفة لا تتحدّث عن الجائحة التي تضرب العالم هذا العام، حيث تقدم تحقيقاً عن المخاطر الصحية التي تشكلها المواد الغذائية المصنّعة أو المعدّة صناعياً مثل اللحوم. تكشف الكاتبة عن أن الحلول موجودة، ومنها مقترحات سياسات زراعية، وتعديل العادات الغذائية لكن الإرادة التنفيذية تبدو غائبة لدى الحكومات. ترى ليكلير أن المزارع الصناعية للدواجن واللحوم أصبحت مصدرًا رئيسيًا للأوبئة لأنها بيئة مثالية لانتشار الفيروسات.